مِعْيَارُ العِلْم

فِي

فَنِّ المَنْطِق

تصنيف

الإمام أبي حامد مُحمَّد بن محمد الغزالي

المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ١١٤٥٥٣ - تلكس ٢٣٦٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المصنف

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الإمام الهمام بركة الأنام زين الدين وحجة الإسلام ، الهادي الى دار السلام ، أبو حامد الطوسي الغزالي صاحب الهمة العالية والفطرة الفائقة ، والفكر الدقيق والغور العميق .

ولد بطوس – من مدن خراسان – سنة خمسين وأربعمائة من الهجرة . كريم الجوهر نفيس المعدن ، فما كاد يبلغ أشدّه حتى تعلم القراءة والكتابة (١) وأخذ يدرس العلوم الدينية ، فقرأ في صباه طرفا من الفقه ببلده على أحمد بن محمد الراذكاني ، ثم سافر الى جرجان واختلف على أبي نصر الاسماعيلي ، حتى علق عنه التعليقة في الأصول ، ثم رجع إلى طوس . قال الامام أسعد الميهني : سمعت أبا حامد يقول : قطعت

---

(١) حكي أنه لما حضرت والده الوفاة وصى به وبأخيه احمد الى صديق له متصوف من أهل الخير وقال له : إن لي لتأسفا عظيما على تعلم الخط وأشتهي استدراك ما فاتني في ولدي هذين ، فعلمهما ولا عليك ان ينفد في ذلك جميع ما أخلفه لهما . فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن فني ذلك النذر اليسير الذي كان خلفه لهما أبوهما ، وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما ، فقال لهما : اعلما اني قد أنفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من أهل الفقر والتجريد ليس لي مال فأواسيكما به ، وأصلح ما أرى لكما ان تلجآ إلى مدرسة فيحصل لكما قوت يعينكما . ففعلا ذلك ، وكان هو السبب في سعادتهما وعلوّ درجتهما .

علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا فتبعتهم ، فالتفت إليّ مقدمهم وقال : ارجع ويحك وإلاّ هلكت ! فقلت له : أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد عليّ تعليقتي فقط فما هي شيء تنتفعون به . فقال لي : وما هي تعليقتك؟ فقلت : كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها . فضحك وقال : كيف تدّعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم؟ وأمر بعض أصحابه فسلم إليّ المخلاة فقلت : هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري . فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع عليّ الطريق لم أتجرد من علمي . وقد روى عنه هذه الواقعة أيضا الوزير نظام الملك .

وبعد أنْ أقام هذه البرهة بوطنه أزمع الرحلة في طلب العلم ، فرحل إلى نيسابور ولازم إمام الحرمين وأخذ ذهنه المعروف يتلمس السبيل المؤدية إلى العلم الصحيح ، ويتطلب المعرفة الحقيقية ويتحسس نور الحق الصريح . وكان شيخه المذكور ممن خف فيهم قيد التقليد ، ولم يثقل به عقال التقييد ، فصار ذلك محركا للفطرة الغزالية ، ومشعلاً لتلك النار الطوسية . فجدّ واجتهد في تلك العلوم التي كانت مشهورة ومعتبرة لذلك الوقت ، فما أتى على جميعها من فقه وأصول وكلام وخلاف وجدل وغيرها ، حتى سئمت نفسه تلك التقاليد ، ونهض لإطلاق عقله من ذلك الأسر الشديد ، والبحث عما تنبعث إليه النفس الناطقة الإنسانية من ذاتها ، ويتسنى لها به الحصول على سعادتها ولذّاتها .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبه وديدنه من أول أمره وريعان عمره ، فلم يزل منذ المراهقة يفحص مباني العقائد ، ويستكشف أسرار المذاهب ، وهي بين عقيدة سنية أشعرية ، ونحلة عقلية اعتزالية ،

وبين آراء ظاهرية فقهية ، وطريقة باطنية روحية ، وغير ذلك .

نظر حواليه فرأى اختلاف الخلق في الأديان والملل ، وتفرق الأمم في المذاهب والنحل على كثرة الفرق ، وتعدد الطرق ، وكل فريق يزعم أنه الناجي « وكل حزب بما لديهم فرحون » وليس لدى أي فرقة ما يدعو إلى شدة التمسك والمحافظة على التعصب والتمذهب إلا النشأة والوراثة والتقليد ، إذ رأى صبيان النصارى لا نشء لهم إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشء لهم إلا على التهود ، وصبيان المجوس لا نشء لهم إلا على التمجس ، وصبيان المسلمين لا نشء لهم إلا على التمسلم ، وكان قد سمع الحديث المشهور : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » .

أمعنَ النظر في ذلك طويلاً ، وتأمله إجمالاً وتفصيلاً . ثم رجع إلى نفسه فرأى أن ايثار تقليد على تقليد وهم وحمق ، وضلال وخرق . ولما عاود النظر مرة أخرى وجد أنّ أعظم العقبات التي كانت في طريق الأنبياء والمرسلين ، هي تقليد الوالدين والأستاذين والجمود على تراث الغابرين . وما زال يكرر الفكر في هذا الأمر حتى انحلّت عن قلبه عقدة التقليد ، وانكسرت عنه وراثات التقييد ، ورجع الى حقيقة الفطرة الأصلية ، تلك الفطرة التي يعرفونها في أوائل فنّ الميزان بأنها الحالة التي يكون فيها الإنسان مجردا عن العقائد الوراثية والآراء التلقينية القومية ، ومنقطعا عن أحكام الوهم التي لم تتأيد بعقل صريح وفكر صحيح . عند ذلك علم على الجزم واليقين ، وبوجه هو أوضح وجوه التنوير والتبيين ، أن العلم الحقيقي هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريبة ولا يقارنه احتمال غلط ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك بل الأمان من الغلط ينبغي أن يكون مقارنا له ، بحيث لو تصدى للتشكيك فيه من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا ، لم يورث ذلك عنده شكا ونكرانا . وبذلك وضع أبو حامد بينه وبين الظواهر الملية ،

المناقضة للعلوم اليقينية ، حاجزاً حصيناً ، فلم تعد تجـد إلى ذهنـه سبيلاً .

قال أبو حامد في أول المنقذ مشيراً إلى أن المقلد على خطر شديد ، بل على شفا جرف هار ما معناه : ان افتراقات الأمم والفرق في الملل والنحل ، هوّة سقط فيها الأكثرون وما نجا منها إلاّ الأقلون ، ولا يزالون مختلفين « إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » .

وفي آخر الميزان قد أبان عن ذلك زيادة بيان ، وتمثل بهذا البيت :

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به، في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

تلقى أبو حامد على أستاذه المشار إليه جميع الفنون الدينية ، فأتقنها وبرّز فيها على أقرانه حتى صار من الأعيان المشار إليهم في زمن استاذه ، وكان يتمدح به ، ولم يزل أبو حامد ملازماً له وهو بعد في المقام الأول من مقامات النظار ، وأهل النظر والاعتبار ، إلى أنْ توفي الأستاذ سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، فخرج من نيسابور إلى العسكر ولقي الوزير نظام الملك فأكرمه وبالغ في الاقبال عليه ، وكان بحضرة الوزير جماعة من الأفاضل فجرت بينه وبينهم عدة مناقشات ظهر فيها عليهم ، فأعجب به أهل العراق ، واشتهر إسمه في الآفاق ، وحاز الرئاسة في هـــذه الناحية كما حازها بجهة خراسان ، وسارت بذكره الركبان ، وصار ممن يشار إليهم بالبنان .

وفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، فوض اليه الوزير تدريس المدرسة النظامية فاشتغل بالتدريس والتأليف ، وصنف ما شاء من التصـانيف : كالبسيط ، والوسيط ، والوجيز ، والخلاصة في الفقه ، وكالمنتحل في عـلم الجدل ، وكمأخذ الخلاف ولباب النظر ، وتحصين المآخـــذ والمبادي والغايات في فن الخلاف ، لكنّه مع هذا الشغل الشاغـل ، لم تخمد نار

ذكائه العقلي وحرصه على استجلاء جلية الحق واستخلاصه من بين اضطرابات الفرق ، فأخذ يمعن النظر في فنّ الكلام بدقة عجيبة وتحقيق بليغ ، غير أنه بعد أن سبر غوره واكتنه كنهه ، صادفه صنعة لا تفي بما قصد إليه ، ولا تقرّب بما حوم عليه ، إذ كان مقصودها حفظ عقيدة العامة وحراستها عن تشويشات المبتدعة ، حراسة اعتمدوا فيها على مسلمات خصومهم التي اضطرهم الى تسليمها إما التقليد أو جماع الأمة أو مجرد القبول السطحي من ظواهر الكتاب والسنة ، فكان أكثر خوضهم في مؤاخذاتهم بلوازم مسلماتهم ، وذلك عديم النفع في جانب من طلب الحقائق البرهانية ؛ فلم يكن فنّ الكلام في حقه كافياً ، ولا لداء التعطش إلى ماء الحقيقة شافياً ، وليس فيه ما ينجي من ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق ، بل الحرص على ما أوتوا من الرزق ، ذلك لأنّ الأقيسة المؤلفة من المسلمات والمشهورات إنما هي مقاييس جدلية كما أن المؤلف من المظنونات حجة خطابية ، والمؤلف مما يوقع انقباضاً أو انبساطاً في النفس طريقة شعرية ، والمركب من الوهميات مغالطة وأقوال سفسطائية.

أما البرهان فهو المؤلف من اليقينيات أو ما ينتهي إليها ، تلك اليقينيات المعروفة بالحسيات والبديهيات والوجدانيات والحدسيات والتجربيات والمتواترات والقضايا الفطرية القياس ، وانما تفصيل ذلك كله في فنّ الميزان . ثم حركه الى مطالعة الفنون الحكمية ، والعلوم الفلسفية العقلية ، ما رآه في بعض الكتب الكلامية من مجاوزة الذبّ عن السنة بقمع البدعة إلى البحث عن حقائق الأمور ، وأحكام الجواهر والاعراض . وزاده انبعاثاً ونشاطاً إلى ذلك ما وجده في تلك الكتب من عزو أمور إلى الحكماء فاسدة الظاهر ، لا تليق بعاميّ فضلاً عمن يدعي دقائق العلوم ، أمور سمعوها فردوها بمجرد سماعها دون إحكام وتفهم وتبين . فشمر عن ساق الجدّ في تحصيل ذلك ، وأقبل عليه بهمة قوية ، وعزيمة ثابتة ونشاط متواصل في أوقات فراغه من التصنيف والتدريس للعلوم

الشرعية بالمدرسة النظامية ، وابتدأ النظر والدرس بالرياضيات عملاً بما أوجبه الحكماء من افتتاح التعلم والتعليم بها ، لتأنس النفس بالبرهان ويتربّى فيها ذوقه ، حتى إذا جاءت إلى النظريات الدقيقة أدركت الحق فيها على يسر وقرب ، ثم ثنى بالمنطقيات ، وثلث بالطبيعيات والإلهيات ، وختم بالأخلاقيات والسياسيات ، وبالجملة فقد صرف عنايته إلى تحصيل هذه العلوم فلم يكن إلاّ ثلاث سنين حتى اطلع على مراميها وأسرارها ، وميز بين قشرها ولبها .

في ذلك الوقت كان في الناس حزبان متطرفان : أحدهما ينكر على الفلاسفة جميع علومهم حتى ما كان منها بديهيّ الصحة جليّ البرهان ، والآخر يقبل كل ما يسمعه عنهم بمجرد التقليد وحسن الظنّ لا غير . فهبّ بحكم ما انطبع عليه من بغض الاسترقاق والعبودية والجنوح إلى النظر الحر ، والفكر المستقل لمحاربة تلك التطرفات حرباً عامية ، فأنكر على الطائفة الأولى تطرفها بقوله : إن الدين إذا كان ينبغي أن ينصر بإنكار كلّ علم منسوب إلى الحكماء وادّعاء غلطهم في جميع أقوالهم ، حتى إنكار مثل قولهم في الخسوف والكسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع كان الدين اذاً مبنيا على الجهل وانكار البرهان القاطع ، وهو مما لا يشتبه في فساده ؛ قال أبو حامد : ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار العلوم الرياضية وأمثالها من البرهانيات ، اذ ليس في الشرائع تعرض لهذه العلوم ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية . ولأنّ ما أدى إليه البرهان لا يعارض الدين الصحيح إذ الحق لا يضاد الحق . وأما الطائفة الأخرى فقد رد عليها في قولها لو كان الدين حقاً لما خفي على هؤلاء مع دقة علومهم وغزارة فنونهم ورزانة عقولهم . قال أبو حامد : وكم رأيت ممن ضل عن الحق بهذا القدر ولا مستند له سواه .

وهذا الرد من وجهين : الأول إنكار نسبة الجحود إلى الحكماء إذ

قد اتفق كل مرموق من الأوائل والأواخر ، على الإيمان بالله واليوم الآخر ، وإنما الخلاف في التفصيل . الوجه الثاني أنه لا يلزم من إصابة شاكلة الحق في موضع إصابته في سائر المواضع ، ولا يجب ان يكون الحاذق في صنعة حاذقاً في بقية الصنائع ؛ فلا يلزم من اتقان الرياضيات أحكام الإلهيات مثلاً ، ولأن حاصل ما ذكرتموه يرجع إلى التحيز إلى الفئة الفاضلة بظنكم والانخراط في سلكهم ، والترفع عن رتبة الجماهير والدهماء ، والاستنكاف من القناعة بأديان الآباء . ولعمري إن هذا لهو التقليد بعينه بل أشنع أنواعه ، إذ أية رتبة في العالم أخس من رتبة من يظن ان الانتقال من تقليد إلى تقليد جمال ، ولا تتطلع نفسه إلى رتبة البحث والاستدلال والبله من العوام بمعزل عن فضيحة هذه المهواة . فالبلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء ، والعمى أقرب إلى السلامة من بصيرة حولاء . ولبيان ان تقليد الفلاسفة في دعاويهم أو في دعاويهم وفي أدلتها جميعاً قابل للتزعزع بعواصف الاعتراض والرد ، ألف كتابه تهافت الفلاسفة ، وليعلم أمثال هؤلاء المتهاونين بالشرائع فساد التسرع الى قبول كل ما يروى ويسمع ، دون اجراء مناقشة فيه وتحريك للذهن في مجاريه . ولما الف أبو حامد هذا الكتاب أصبح امام المتكلمين ، وأضحى شيخ المناضلين عن الإسلام بل عن عموم الأديان .

ففي هذه الظروف أظهر ابن الصباح دعوته وأشاع مقالته ، فاشتد به أزر الباطنية وتقوّى ظهرهم ، فعم شرهم وتطاير شررهم . فورد عليه أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب في الرد عليهم والكشف عن حقيقة مذهبهم ، وانضم ذلك الباعث الخارجي الى ما انطوى عليه من الميل الى استكشاف أسرار المذاهب ، فصار البحث عن ذلك ضربة لازب . فابتدأ بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم فلم يكن الا قليل حتى اكتنه كنهها وهتك سترها ، واستطلع سرها وألّف في الرد عليهم ولم يأل جهداً في ذلك . فمما ردّ به عليهم في دعواهم الحاجة

إلى المعلم المعصوم ، ووجوب الرجـــوع اليه في كل جليل وحقـير قوله : إنّ المعلم المعصوم إنما هو صاحب الشريعة عليه السلام ، فإنه أبان عن طريق الرشد ، وأوضح المحجة ، وأكمـــل الحجة ، وأتم الإرشاد والتعليم ، « اليومَ أكملتُ لـكم دينَـكم » وقوله : إن طريـق المعرفة الأصولية هو النظر الصحيح يعني المستوفي لجميع الشرائط المنطقية . وردّ عليهم في شرودهم بالتأويل عن الجادة وتوغلهم فيه بلا نظام ولا قانون بأنّ هذا يبطل الثقة ولا يبقى معه ما يسمى باللغة ، كما هو مسطور في الاحياء وسائر كتبه . وبالجملة فقد صنف في الردّ عليهم عـــدة رسائل منها : المستظهري ، وحجة الحـق ، ومفصل الخلاف المقسم إلى اثني عشر فصلاً والدرج المرقـوم بالجداول ، والقسطاس المستقيم الذي يذكر فيه موازين العلوم ، والاستغناء عن المعلم المعصوم .

الغزالي الجديد

ولما فرغ أبو حامد من ذلك كله ، علم أن مـا حصله ليس وافياً بكمال الغرض ، وان العقـل لا يستقل بالإحـاطة بجميع المطـالب ولا بالكشف عن جميع المعضلات ، وان المطلوب هو استخلاص الحقّ مـــن بين اضطرابات الفرق ، والتمييز بين جميـــع المسالك والطرق . فأقبل بهمته على درس طريقة الصوفية من مطالعة كتبهم مثل قـــوت القلوب لأبي طالب المـكي ، وكتب الحارث المحاسبي ، والمتفرقات المأثورة عـن الجنيد والشبلي وغير ذلك كلام مشايخهم ، حتى اطلع على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصل ما يمكن أن يحصـل من طريقتهم بالتعلم والسماع ، فعلم ان طريقتهم ، إنما تتم بعلم وعمل ، إذ كان غاية ما يقصدون قطـع

عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتخلى القلب عن غير الله ، ويتحلى بذكر الله .

وظهر له أن أخص خواصهم من لا يمكن الوصول إلى درجته بالتعلم والسماع بل بالذوق والسلوك . لكنّ إماما كهذا الإمام له من الشهرة وبعد الصيت والشأن الرفيع والجاه العريض ما تقدم ذكره ، يتعذر ويتعسر عليه بحكم هذه العوامل والعوائق الإقدام على سلوك طريق مفتاحه قطع العلائق من الدنيا بالكلية ، بحيث لا يلتفت القلب إلى أهل وولد ومال ووطن ومنصب ، ويصير إلى حالة يستوي عنده وجود ذلك كله وعدمه . اللهم إلاّ إذا صادفته عناية ، وكان من قوة الجأش واستمساك النفس في أسمى مكانة ، فلم يزل يتفكّر في ذلك عدة شهور أولها رجب سنة ثمانية وثمانين وأربعمائة ، وصار يتردد بين تجاذب تلك الأحوال وحيثيات ما رآه واجباً عليه من الأعمال ، فيوماً يصمم العزم على الخروج من بغداد ويوماً يحله وصار يقدم رجلاً ويؤخر أخرى لا تصفو له رغبة في طلب السعادة العملية بُكرة ، حتى يحمل عليها جند الشهوة فيفترها عشية ، كل هذا التردد جار ومنادي الإيمان يناديه : الرحيل الرحيل ! فلم يبق من العمر إلاّ قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه رياء وتخييل . حتى اذا غاص فكره يوماً في حقيقة هذه الدنيا ولذاتها ، علم أن مدتها منحصرة ولذاتها منقضية منصرمة ، وأن الموت وراء الإنسان بالمرصاد ، وأن الأمل في الخلود غفلة وغرور وحمق وجنون ، وأن الحزم هو إبعاد القلب عنها طوعاً قبل أن يطرد منها كرهاً ، وأن أمر الدنيا غاد ورائح ، وليس صفاؤها بثابت ودائم ، بل الإنسان معرّض فيها لأنواع من الشقاء ، وأن الانحطاط عن همة الأنبياء ، عيش البؤساء ودناءة في الرجاء ، وأنّ المؤمن الكريم بماذا يتميز عن الكافر اللئيم ، إلاّ بعلوّ

الهمة وسقوط رتبة الدنيا في عينه وترفعه عن مشاركة العجماء في هذه الأشياء .

واستولى ذلك الفكر على قلبه وملك قواه واشمأزت نفسه عما هو عاكف عليه ، ونفرت بالكلية وانقبضت انقباضاً شديداً أورثه حزناً في القلب ضعفت معه قوة الهضم ، ومرض مرضاً عظيماً حتى قطع الأطباء طمعهم في العلاج وقالوا : هذا أمر نزل بالقب ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إلى علاجه إلاّ بأن يتروح السرّ عن الهم الملم ، فصغرّ هذا المرض الدنيا في عينه وسقطت منزلتها عنده وبغّضها اليه ؛ فسهل عليه الإعراض عن الجاه والمال ، والأهل والولد والأصحاب ، وصدقت نيته في الإقدام على السير والسلوك الروحاني ، واستشار بعض متبوعي الصوفية في الانقطاع إلى تلاوة القرآن فمنعه وقال : السبيل أن تستمر على قطع العلائق ، وتهذيب النفس من الرذائل والنقائص ، وتلاحظ نفسك في ذلك دائماً حتى يصير ملكة لك .

والأقرب إلى ذلك هو مفارقة الوطن والعيال والخروج من العراق ، وملازمة الاعتكاف والتحنث حتى اذا رسخ في القلب تلك الحال ، لازمت الخلوة للتفكر ومطالعة ملكوت السموات والأرض إلى أن تكمل صفاتك ، وتتحلى بالفضائل بعد هذا التخلي عن الرذائل ، وعند ذلك تستأهل لأن تكون إماماً لا شغل لك إلاّ دعوة الخلق إلى الحقّ . ففارق بغداد وفرّق ما كان معه من المال ، ولم يدّخر إلاّ قوت الأطفال وقدر الكفاف . ودخل الشام وأقام بها قريباً من سنتين لا شغل له إلاّ العزلة والخلوة والرياضة ، والمجاهدة لتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله ، حسبما حصّله من علم الصوفية . ثم رحل إلى بيت المقدس ومنها إلى أداء فريضة الحج ، ثم قصد مصر ليسافر منها إلى المغرب على عزم الاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين لما سمع من عدله ، وبينما

هو على هذه النية إذ سمع نعيه فصرف عزمه عن تلك الناحية ، واستمرّ يجول في البلدان والأقطار ، وهام على وجهه في البراري والقفار ، لابساً المرقعة ومعه المزود وبيده العصا .

وبينما هو كذلك إذ لقيه بعض أصحابه فعزله على هذا الحال والتمس منه الرجوع إلى الوطن ومعاودة ما كان عليه . فنظر إليه شذراً وقال لما بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة وظهرت شموس الوصل :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزلٍ ، وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونادتني الأشواق : مهلا فهـذه منازل من تهوى رويدك فانزل
غزلت لهم غزلاً رقيقاً فلم أجِد لغزلي نسّاجاً فكسّرت مغزلي

وبالآخرة عاود الوطن ، واشتغل بتكميل نفسه ودعـوة الخلق إلى الحقّ وبالتصنيف في العلوم المفيدة . وأخذ يذكر في كتبه ما استفاده في مدة الخلوة والعزلة ، واتخذ خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم في جواره ، ووزّع أوقاته على وظائف الخير من تلاوة القرآن ومجالسة أهل القلوب ، وبالتصنيف والتأليف على ما تقدّم . ولـمـا استقرّ على هـذا ، كتب إليه الوزير نظام الملك يستدعيه الى بغداد ومعـاودة التدريس بالنظامية ، فأبى وكتب اليه جواباً شافياً هذا نصه :

اعلم أن الخلق في توجههم الى ما هو قبلتهم ثلاث طوائف :

احداها ــ العوام الذين قصروا نظرهم على العاجل من الدنيا فمقتهم الرسول بقوله : « ماذئبان ضاريان في زريبة غنم بأكثر إفساداً من حبِّ المال والشرف في دين المرء المسلم » .

ثانيتها ــ الخواص وهم المرجحون للآخرة ، العالمون بأنها خير وأبقى ، العاملون لها الأعمال الصالحة ، فنسب إليهم التقصير بقوله : الدنيا حرام

على أهل الآخرة ، والآخرة حرام على أهل الدنيا ، وهما حرامان على أهل الله .

ثالثتها — الأخصاء وهم الذين علموا ان كلّ شيء فوقه شيء آخر فهو من الآفلين ، والعاقل لا يحب الآفلين ، وتحقـّقوا انّ الدنيا والآخرة من بعض مخلوقات الله ، وأعظم أمورهما الأجوفان : المطعم والمنكح . وقد شاركهم في كلّ ذلك البهائم والدوابّ ؛ فليس واحد منهما مرتبة سنية فاعرضوا عنهما . وتعرضوا لخالقهما وموجدهما ومالكهما ، وكشف لهم معنى « والله خيرٌ وأبقى » وتحقق عندهم حقيقة « لا إله إلاّ الله » وان كل من توجه الى ما سواه فهو ليس بخال عن الشرك الخفي . فصار جميع الموجودات عندهم قسمين : الله وما سواه ، واتخذوا ذلك كفتي ميزان ، وقلبهم لسان ذلك الميزان . فكلما رأوا قلوبهم مائلة الى الكفّة الشريفة حكموا بثقل كفّة الحسنات ، وكلما رأوها مائلة الى الخسيسة حكموا بثقل كفة السيئات . وكما أن الطبقة الأولى عوام بالنسبة الى الثانية ، فكذلك الطبقة الثانية بالنسبة الى الثالثة ، فرجعت الطبقات الثلاث الى طبقتين ، فحينئذ أقول : قد دعاني صدر الوزراء من المرتبة العليا الى المرتبة الدنيا ، وأنا أدعوه من المرتبة الدنيا الى المرتبة العليا التي هي أعلى عليين . والطريق الى الله من بغداد ومن وطوس ومن كل المواضع واحد ليس بعضها أقرب من بعض ، فاسأل الله أن يوقظه من نومة الغفلة لينظر في يومه لغده قبل ان يخرج الأمر من يده ، والسلام .

ثم توفي بعد ذلك بقليل طيب الثناء أعلى منزلة من نجوم السماء ، وأهدى للأمة من البدر في الظلماء ، وكانت وفاته يوم الإثنين الرابع عشرة من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة بوطنه طوس ، ومشهده بها يزار بمقبرة الطبران ، ورثاه أبو المظفر الأبيوردي بقصيدة فائية منها :

بكى على حجة الاسلام حين ثوى … من كلّ حيّ ، عظيم القدر أشرفه
فما لمن تمتري في الله عبرته … على أبي حامد لاحٍ يعنّفه

ومنها .

مضى ، وأعظم مفقود فجعت به ، … من لا نظير له في الناس يخلفه

ومدحه أبو العباس الاقليشي تلميذه بقوله :

أبا حامد أنت المخصص بالمجد ، … وأنت الذي علمتنا سنن الرشد
وضعت لنا الاحياء تحيي نفوسنا ، … وتنقذنا من طاعة النازغ المردي
فربع عبادات وعاداته التي … تعاقبها كالدرّ نظم في العقد
وثالثها في المهلكات ، وانه … لمنج من الهلك المبرح والبعد
ورابعها في المنجيات ، وانه … ليسرح بالأرواح في جنة الخلد
ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر ، … ومنها صلاح للقلوب من الحقد

ومما يروى عنه من الشعر قوله :

سقمي في الحب عافيتي ، … ووجودي في الهوى عدمي
وعذاب يرتضون بـه … في فمي أحلى من النغم
ما لضر في محبتكم … عندنا والله من ألم

وقوله : وقد سأله بعضهم عن كيفية استواء الله على عرشه :

قل لمن يفهم عني ما أقول : … قصّر القول فذا شرح يطول
ثمّ سرّ غامض من دونه ، … قصرت والله أعناق الفحول
أنت لا تعرف إياك ، ولا … تدري من أنت ، ولا كيف الوصول
لا ولا تدري صفات ركبت … فيك ، حارت في خفاياها العقول
أنت أكل الخبز لا تعرفه … كيف يجري منك ، أم كيف تبول

أين منك الروح في جوهرها ، هل تراها فترى كيف تجول ؟
أين منك العقـل والفهم اذا غلب النوم ، فقل لي ياجهول ؟
فـإذا كانت طواياك التي بين جنبيك كذا فيها ضلول
كيف تدري من على العرش استوى ، لا تقل : كيف استوى ، كيف النزول
فهو لا أين ، ولا كيف له ، وهو في كل النواحي لا يزول
جلّ ذاتا وصفات وسما ، وتعـالى ربّنا عمـا تقول

ومما قيل فيه من الوصف والمدح نثراً : انه هو محمد بن محمد بن محمد ابن أحمـد الإمام الجليل حجة الإسلام وبركة الأنام ، ومحجّة الدين التي يتوصّل بها الى دار السلام ، جامع أشتات العلوم والمبرز في المنقول منها والمفهوم . جرت الأئمة قبله لشأوٍ ما قنع منه بالغاية ، ولا وقف عند مطلب بل لم يبرح في دأب لا يقضى له بنهاية ، حتى أخمـل من الأقران كل خصم بلغ مبلغ السها ، وأخمد من نيران البدع كل مـا تستطيع أيدي المجالدين مسّها . كان رضي الله عنه ضرغامـا إلاّ انّ الأسود تتضاءل لديه وتتوارى ، وبدراً تماماً إلاّ ان هداه يشرق نهاراً ، وبشراً من الخلق إلاّ انه الطود العظيم ، وبعض الناس ولكن مثل ما بعض الجماد الدر النظيم :

فإن تفق الأنام وأنت منهم ، فإن المسك بعض دم الغزال

جـاء والناس في ردّ فرية المتفلسفة الملحـدة أحوج من الظلماء لمصابيح السماء ، وأفقر من الجدباء الى قطرات الماء ؛ فلم يزل يناضـل عن الدين الحنيفي بجلاد مقاله ، ويحمي حوزة الدين ولا يلطّخ بـدم المعتدين حدّ نصاله ، حتى أصبح الدين وثيق العرى ، وانكشفت غياهب الشبهات وما كانت إلاّ حديثاً مفترى ، هذا مع ورع طوى عليـه ضميره ، وخلوة لم يتخذ فيها سوى الطاعة سميره ، ترك الدنيـا وراء

ظهره ، وأقبل على الآخرة يعامل الله في سرّه وجهره ، وكان شديد الذكاء ، عجيب الفطرة ، مفرط الإدراك ، بعيد الغور غوّاصاً على المعاني الدقيقة ، جبل علم ، مناظراً محجاجاً ، أعجب الخلقَ حسن كلامه ، وكمال فضله وفصاحة لسانه ، ونكته الدقيقة وإشاراته اللطيفة ، فانتشر ذكره في الآفاق وفاق ، ورزق الحظّ الأوفر في حسن التصنيف وجودته ، والنصيب الأكبر في جزالة التعبير وسهولته ، واليد الطُّولى في حسن الإشارات وكشف المعضلات وفتح المغلقات ، والتبحر في أصناف العلوم وفروعها وأصولها ورسوخ القدم في منقولها ومعقولها ، والاستيلاء على إجمالها وتفصيلها ، ومناقبه أكثر من أن تحصى وفيما ذكر مقنع وبلاغ .

هذا ومصنفاته كثيرة ، بلغت في العدّ مبلغاً عظيماً وكثير من عدّها ، ولكنا ارتأينا ان تعداد غير المطبوع منها أو المطبوع في غير هذه الديار ليس بجمّ الفائدة ، فالتزمنا الاقتصار على ذكر المطبوع منها في هذا القطر ، وهي :

الاحياء ، المشكاة ، بداية الهداية ، الأربعين ، الميزان ، الرسالة اللدنية ، أيها الولد ، الأدب في الدين ، القواعد العشرة ، سرّ العالمين ، التبر المسبوك ، الكيميا ، رسالة الطير ، رسالة في الوعظ والاعتقاد ، المنقذ ، المضنون به على غير أهله ، الأجوبة الغزالية والمسائل الأخروية ، الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة ، منهاج العابدين ، المقصد الأسنى ، الحكمة في مخلوقات الله ، مكاشفة القلوب ، فيصل التفرقة ، القسطاس ، الاقتصاد ، الجام العوام ، التهافت ، محكّ النظر ، المستصفى ، الوجيز ، مختصر الاحياء ، آداب الصوفية ، هذا ويجلب الى مصر كثيراً كتاب جواهر القرآن — والكشف والتبيين .

نبذة في تاريخه العلمي

١ – رأيه في التقليد

يرى ذلك الإمام الجليل ان الناس معادن خلقوا على فِطر شتّى : فمنهم الذكيّ والأذكى ، والبليد والأغبى ، والقاصر والبالغ ، والناقص والكامل ؛ فضلاً عن تباينهم في العادات والصناعات : فمنهم المشغول طول يومه بشغل معاشه ، ومنهم المتجرّد للعلم المنقطع لكشف المعضلات وإيضاح المشكلات ، ومنهم من هو بين هذا وذاك لا يخلص لحال ، ولا يتفرغ لنوع واحد من الأعمال ، فلذلك كله يرى كفاية التقليد في العقائد الحقّة للأكثر ، وأنه إنْ كان لا بد من تلقينهم أدلة ما لقنوا الأدلة الوعظية الخطابية ، وهي ظواهر نصوص الأدلة النقلية كالذي استدلّ به القرآن على وجود الخالق ووحدانيته ، وقدرته على البعث والإعادة نحو قوله : « فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، انه على رجعه لقادر ، يوم تبلى السرائر ، فما له من قوة ولا ناصر . » وقوله : « لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا » . وقوله : « اذاً لذهب كلُّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » (الآية) .

هذا رأيه في العوامّ والجماهير وبالجملة المشغولين بالحرف والصنائع ، ولا سيا أهل الجمود والبلادة منهم ، وبالطبع حالهم في الفروع أحرى بهذا الحكم الذي حكم به عليهم في الأصول ، وقياساً عليه لا بأس بتلقينهم بعض الأدلة فيها إن تيسّر ، وذلك كله يجب أن يكون أوّلاً في أيام الصباوة والمراهقة ، لأنه زمان صفائهم وعدم انهاكهم في جلب الأرزاق والأقوات ، وثانياً في مدة العمر بتكليف الوعاظ والخطباء بالقاء الدروس

الدينية في اعقاب انقطاعهم عن اعمالهم ؛ فهذا حكم العامة . واما الخاصة وطلبة العلوم فهو يحرم عليهم التقليد كل التحريم ويوجب النظر والاستدلال والبحث والاستقلال ، ولكنهم مع ذلك على مراتب : فمنهم من يكفيه الادلة الجدلية وهي الفن المستعمل في علم الكلام للاحتجاج ، ومنهم من لا يكتفي بذلك بل لا يقتنع الا بالمقدمات اليقينية التي هي مواد البراهين . قال : فمن ذكر له الحجة الجدلية فقنعت بها نفسه فلا يصح أن يذكر له ما فوق ذلك ، فان توسم فيه مخايل الفطانة والاستشراف لليقين البحت ، وكان معه من الاستعداد والمواد العلمية ما يكفيه لفهم البرهان ، فلا بأس بذكر البرهان ، ويستدل ، على هذا التوزيع بأمرين : دليل عقلي ودليل نقلي .

اما العقلي فهو ان حال الناس في تناولهم ماتحتاج اليه قلوبهم وفهومهم حالهم في التغذية البدنية ، فكما ان الطفل الرضيع لا يوافقه الاغتذاء بلحوم الطيور ، كذلك لا يلائم البرهان أقواما قصروا في طباعهم وأذهانهم عنه . وكما ان الرجل القوي يشمئز من الارتضاع بألبان المراضع ، كذلك الحكماء البالغون والعرفاء الراشدون يعافون غير اليقين الصافي . وكما ان الرجل الذي يغذي البدويّ بخبز البرّ وهو لم يألف إلاّ التمر أو البلدي بالتمر وهو لم يألف إلاّ البر ، يسيء في هذا الاستعمال ويظلم ، كذلك من أراد ان يلقن الجدل أهل الخطابة أو الخطابة أهل الجدل ، فهذا هو الدليل العقلي .

أما الدليل النقلي فهو قوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » والحكمة لأهل البراهين والموعظة لأهل الخطابة والجدل لمن ارتفع طبعه عن مجرد الكلام الوعظي ولم يرتقي ارتقاء تامّا الى البرهان الصرف .

بعض امارات اهل التقليد

« عند هذا الإمام »

قال في أول المنقذ : من شرط المقلد ألاّ يعرف أنه مقلد ، فاذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده ، وهو شعب لا يرأب وشعث لا يلم بالتلفيق والتأليف ، إلا أن يذاب بالنار ويستأنف له صيغة ثانية مستجدّة . وقال في آخر كتاب الجام العوام ما نصه : فان قلت فبم يميز المقلد بين نفسه وبين اليهودي المقلد ؟ قلنا : المقلد لا يعرف التقليد ولا يعرف انه مقلد بل يعتقد في نفسه انه محقّ عارف ، ولا يشكّ في معتقده ولا يحتاج مع نفسه الى التمييز لقطعه بأن خصمه مبطل وهو محقّ ولعله أيضا يستظهر بقرائن وأدلة ظاهرة وإن كانت غير قوية ، يرى نفسه مخصوصا بها ومميزا بسببها عن خصومه . فإن كان اليهودي يعتقد في نفسه مثل ذلك فلا يشوش ذلك على المحق اعتقاده ، كما أن العارف الناظر يزعم انه يميز نفسه عن اليهودي بالدليل ، واليهودي المتكلم الناظر أيضا يزعم انه مميز عنه بالدليل ، ودعواه ذلك لا يشكك الناظر العارف . وكذلك لا يشكك المقلد القاطع ، ويكفيه في الإيمان ألاّ يشككه في اعتقاده معارضة المبطل كلامه بكلامه ، فهل رأيت عاميا قط قد اغتم وحزن ، من حيث يعسر عليه الفرق بين تقليده وتقليد اليهودي ؟ بل لا يخطر ذلك ببال العوام ، وان خطر ببالهم وشوفهوا به ضحكوا من قائله وقالوا : ما هذا الهذيان ! وهل بين المحق والمبطل مساواة حتى يحتاج إلى فرق فارق يبين انه على الباطل واني على الحق ، وأنا متيقن لذلك غير شاكّ فيه ؟ فكيف أطلب الفرق حيث يكون الفرق معلوما قطعاً من غير طلب ؟ فهذه حالة المقلدين الموقنين .